لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟

هكذا تكون دراسات المستشرقين !!

معجبون كثيرون :

للمستشرقين كثير من المعجبين ، حتى من أصحاب الفكر الإسلامي الأصيل ، فضلاً عن تلامذتهم(المستغربين) وما أكثرهم!

فتجد (المستغربين) يثنون الثناء كلّه ، على كل ما يصدر عن أساتذتهم، ويعتنقون فكرهم ، ويدينون برأيهم ، ويدفعون عنهم، ويهتدون بهديهم ، وينسجون على منوالهم .

وتجد أصحاب الفكر الإسلامي ، وذوي الرأي ، لا يخطف أبصارهم بريُق أعمال المستشرقين وأبحاثهم ، ويعرفون كيف يقفون من آرائهم موقف الناقد البصير .. ولكن !!

(*) نشر في مجلة الأمة – العدد التاسع والعشرون، السنة الثالثة ، ربيع الأول ١٤٠٣هـ يناير ١٩٨٢م

obeikandl.com

ولكن تجد منهم إعجاباً وثناء وتقديراً لجهودهم ، ورأيهم ، ودقتهم في أبحاثهم ، واستقصائهم للمصادر والمراجع ، والأخبار والروايات .. إلى آخر هذه الصفات التي يتظاهر بها المستشرقون .

السبب في ذلك :

والسبب في ذلك هو: ضعفنا نحن لا قوّتهم ، ذلك أن الاتصال بالمصادر الأولى لثقافتنا وعلومنا ، في كتب أئمتنا وسلفنا أصبح أمراً عسيراً ، حيث قُطعنا عنهم أسلوباً ، ولغة ، وفكراً ؛ فصارت التلمذة لهم أمراً صعباً.

على حين عكف المستشرقون ، على هذه المصادر ، واتصلوا بها ، وراحوا يأخذون منها ما يريدون ، ويوجهونها كيف يشاءون .

فرأيناهم صبروا على ما لم نصبر عليه ، وأطاقوا ما لم نطقه ، وارتادوا ما لم نرتده ، واستقَوا حيث قصر منا الرِّشا ، فظننا بهم خيراً (وهذا والحمد لله من طبيعتنا) لا سيما وهم يخرجون علينا في طيلسان(الأكاديمية) وتحت شارة الجامعية، وراية المنهجية.

منهج جدّ خطير :

وفي غمرة الإعجاب ، بقدرة المستشرقين على البحث ودقتهم ومنهجيتهم، صار كثيرون يكتفون بالرجوع إلى كتبهم مستغنين بها عن المصادر الأصلية، ومع ما في هذا من خطأ ، إلا أنه محتملٌ من جهة ما دام ينسب القول إلى المستشرق بدقة وأمانة، وإن كان خطره من جهة أخرى لا حدٌ له في إشاعة الخطأ والبناء عليه.

ولكن الخطر الأكبر الذي يصل إلى حدّ الجريمة في حق المنهج العلمي والعلم ، هو أن يأخذ عن المصادر القديمة بواسطة المستشرقين ، ومع أن أولَيات الأمانة ، وأبجديات المنهج ترفض ذلك ، إلا أنه للأسف يحدث !! ويعتمد بعضهم على ذكائه ومهارته في صياغة العبارة ، بحيث يوهم القارىء أنه رجع إلى الطبري أو ابن الأثير مثلاً -مجرد إيهام- وتكون

العبارة صالحة لأن يراد بها ذلك ، أو أنه نقل ذلك عن فلان.

ليسوا ثقة :

والمستشرقون -في كثير من الأحيان- ليسوا ثقات ، لأكثر من سبب. مثل :

١- العجز عن فهم النص ، فهم مهما برعوا في اللغة ، لا يستطيعون أن يمتلكوا ذوقها وحسّها ، ويحيطوا بمجازها ، وتطور مدلولاتها.

٢- عدم الإحاطة بالنصوص الواردة في القضية الواحدة ، في أماكن مختلفة، فمع أنهم يّدعون أن هذا من منهجهم، إلا أنهم تعوزهم القدرة على ذلك ، خاصة حين يرد النص تبعاً أو استطراداً، أو بصيغة مجازية بعيدة مثلاً.

٣- الخطأ في التفسير والتحليل ، وهذا غير العجز عن الفهم ؛ لأن التفسير يحتاج إلى عدة عوامل ، فهمُ النص واحد منها، فيحتاج مثلا إلى معرفة بالقضية التي ورد فيها النص ، وتطوّرها ، وصلتها بغيرها .. إلخ.

٤- في بعض (الأحيان) يكون هناك سوء نية ، ومحاولة خدمة أغراض تنصيرية واستعمارية ، فيبدأ من أول الأمر (بالإدانة) ، فيبحث عن النصوص التي يمزقها ، ويلفقها ، ويلوي أعناقها ، ويقلبها ، حتى تثبت ما يريد ، وهكذا ..

واحدة من سقطاتهم :

يعتبر (فان فلوتن) أحد المستشرقين المعنيين بالتاريخ الإسلامي ، خاصة فترة الأمويين والعباسيين ، وتستطيع أن تجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ونحوه ، ويعزوه إلى المصادر الأصلية ، فيخيل إلى الدارس أو الباحث أنه أتى بطلبَته من منبعها، وهذه صفحة من كتابه ،تبين كيف يخون المنهج ، ويعتدي على النص !!

السيطرة العربية :

(لفلوتن) كتاب بهذا العنوان ، ترجم مرتين إلى اللغة العربية ، مرة سنة ١٩٣٤م ، والثانية سنة ١٩٨٠م ، وعلى ما في الكتاب من سموم خبيثة سنكتفي بعرض صفحة واحدة منه ، ثم نرى ما وراءها من أخطاء وأخطار.

الهدف من الفتوح :

بإيجاز شديد ، وعبارة مركزة ، يسوق المؤلف رأيَه في الفتوح الإسلامية، وأثرِها في المجتمع ، مؤكداً أنها كانت بالدرجة الأولى من أجل الغنائم ، فأدت إلى ثراء فاحش ، فأفسدت المجتمع وأترفته ، وأغرت المسلمين بالمزيد من الفتوح ، للمزيد من الغنائم ، والجزية ، وهذه عباراته بنصها تقريباً:

« .. إن الأنانية ، وكذلك الجشع ، سرعان ما استأثرا بالقلوب بعد وقت قريب ، وغمر رجالَ الصحراء ترفٌ غير عادي ، انصب عليهم من كل ناحية، مما كان له أثره في إفساد النفوس أكثر من تهذيبها.

ولقد أصابت الأسرُ المرموقة في الكوفة ثراءً فاحشاً ، كان مصدره(الغنائم) والأعطيات السنوية (المخصصات)، ولقد فرضت حالةُ الترف المتصاعدةُ هذه تغطيةً دائمة لمواجهة متطلبات جديدة، واللجوءَ إلى الاستدانة كطريقة فذة من أجل إشباع رغباتهم ، فمهد ذلك السبيلَ إلى مؤامرات ، على غرار ما حدث في روما ، حيث باتت الثورة ضرورية ، مع اللجوء إلى إرضاء المرابين ، واتخاذ الاضطرابات ذريعة للاستيلاء على بيت المال ونهبه.

على أن طريقة أكثر سهولة وشرفاً من ذلك ، هى الجزية والحملات العسكرية ضد الكفار ، وغالباً ما كانت تأتي هذه الأخيرة تلبية لرغبات القادة.

ولكن غالباً ما كانت عائدات الغنائم (باستثناء الخُمس المخصص لبيت

المال) سبباً في غزوات لم يكن لها ما يسوّغها في بعض الأحيان.

وما يسمى بفتوحات يزيد بن المهلب لم تكن في الحقيقة سوى حملات من الإرهاب ، أو قطع الطرق ضد شعوب لا تبغي سوى السلام (ص ٦٧ ، ٦٨).

ولا يعنيني هنا هذا التهجم الذي ليس في حقيقته إلا سباً وشتماً ، وإنما يعنيني ما أسنده إلى المراجع ، خاصة الطبري ، ففيه لَيٌّ لأعناق النصوص ، واستكراهٌ غريب في فهمها وتفسيرها.

ويكفي مثالاً لذلك قوله :«إن حالة الترف المتصاعدة ألجأت إلى الاستدانة كطريقة فذّة من أجل إشباع رغباتهم ، ثم يسند ذلك إلى الطبري:٢٨١١/١ ، وتراجع الصفحة التي أشار إليها ، فلا تجد فيها إلا خبراً عن استدانة سعد بنِ أبي وقاص من بيت المال بالكوفة ، وكان خازنُ بيت المال عبدَ الله بنَ مسعود ، رضي الله عنهما ، وكان سعدُ واليَ الكوفة ، فاستقضى عبدُ الله بنُ مسعود سعداً ، واستمهله سعد فلم يقبل ، وكان بينهما تلاوم ، وصل إلى عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنهم جميعاً ، فلامهما معاً ، على ما كان بينهما من تلاوم ، وعزل سعداً .

هذا ما ذكره الطبري في هذا الموضع ، فكيف يفهم منه أي قارىء ، بله باحثٌ ضليع ، يقتعد مقعد الأستاذية ؟!! كيف يفهم من هذه القصة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع ؟!! وأنها أصبحت وسيلة لإشباع الترف الذي شاع فيه؟ كيف يفهم هذا ؟ وبأي منطق يقال هذا ؟ وأي ترف كان في مجتمع الكوفة سنة ٢٦هـ !!!

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة ، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا ، ولا .. .. ألا يجد فيها فخراً للإسلام والمسلمين ؟ ، ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلا قرضاً ؟ ثم كيف كانت أمانة خازن بيت المال الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي) واصطناع يدٍ عنده ، بالتأجيل فقط (لا بالتنازل)؟ ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت موظفاً (صرافاً) أن يلاحيَ الأميرَ ويعنف عليه ؟؟

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة والفاقة هي التي ألجأت سعداً إلى

الاستدانة ؟ وهذا هو الواقع !! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت ؟؟ وفي أي مجالٍ كان ينفق في ذلك الحين ، وقد كانوا يعيشون عيش الكفاف !

ثم لو مدَّ بصره قليلاً ، لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة ، وكيف أن سعداً رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم رب السموات والأرض .. فقاطعه عبد الله بن مسعود ، قائلا: ويلك !! قل خيراً ولا تلعن .

وخاف أن يدعوَ سعدٌ عليه ، فقال سعد عند ذلك : أما والله لولا اتقاء الله لـدَعَوْت عليك !!! كلمات تقطر تقوى ، وتندى بالحب والإخاء ، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف والتنزه .

ولو قرأ بقية الصفحة ، لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة ، مكث خمس سنوات وليس على داره باب .

فأي ترف؟ وأي استدانة ؟ .. ..

وهو يُسند كل جملة تقريباً من كلامه ، ويُضيفها إلى مرجع من المراجع الأمهات ، ولكن بهذه الطريقة نفسها، وأنكى.

وإذا قال قائل : لا تعجل ، ولا تسرف على الرجل باللوم ، فإن أمر تفسير النصوص ، والاستنتاج منها فسيح المجال ، ولا حرج على الرجل إذا أخطأ ، أو اشتط !! فالخطأ حق من حقوق الإنسان .

مع أن هذا اعتذار غيرُ مقبول ، إلا أنني أقدم أنموذجاً آخر ، من الصفحة نفسها فيه ما لا يمكن الاعتذار عنه.

مثال آخر :

قال : « ولعل ما حدث في سمرقند يعتبر مثلاً صارخاً لهذا النوع من (الفتوح) (يقصد فتوح السلب والنهب من أجل الترف الذي وقعوا فيه)، فقد استسلمت هذه المدينة على إثر معاهدة أبرمتها مع سعيد بن عثمان ، مقابل دفع سبعمائة ألف درهم، وتقديم ألف من سكانها رهائن .

ثم استولى عليها قتيبة بن مسلم في وقت لاحق(حسب الرواية العربية) (كذا) وطرد أهلها، واحتل جنودهُ منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق »أهـ. بنص حروفه من ص ٦٨.

والحق لقد فزعت حين قرأت هذا الكلام ، لا من حدوث مثل هذه الشناعة من القادة المسلمين ، فمعرفتي بتاريخ أمتي ، والروح الذي سادته ، يجعل ذلك لا يخطر لي ببال ، ولكن فزعي من أن يصل الأمر في الاجتراء والافتراء إلى حد أن ينسب هذا إلى جيش المسلمين، «ويضرب مثالاً صارخاً للفتوح ، التي لا باعث لها إلا السلب والنهب».

والرجل كعادته يُسند ظهره إلى المصادر والمراجع ، وقد اختار شيخ المؤرخين الطبري لينسب إليه هذا الكلامَ.

فلننظر ماذا في الطبري ؟ وماذا في هذا الكلام من افتراء ؟ :

(أ) أضاف قوله : إن سمرقند استسلمت لسعيد بن عثمان إلى الجزء الثاني ص١٢٤٥ ، ١٢٤٦.

وليس في هاتين الصفحتين خبر عن سعيد بن عثمان ، وإنما فيهما خبر عن فتح قتيبة لسمرقند ، والذي سيأتي ذكره ، وبينه وبين فتح سعيد بن عثمان لها نحو سبعٍ وثلاثين سنة ، وذلك وارد في الجزء الثاني ص ١٧٨ ، ١٧٩.

ونترك هذه دون تعليق !!!

(ب) ذكر أن سعيدَ بنَ عثمان عاهد أهل سمرقند على دفع سبعمائة ألف درهم ، وتقديم ألف من سكانها رهائن ، وأسند ذلك أيضاً إلى الطبري ، الموضع السابق نفسه الذي وهم فيه.

والذي في الطبري بنصـــه «خرج إليهم سعيد بن عثمان ، وناهضه الُغد (أهل سمرقند) فقاتلهم ، فهزمهم ، وحصرهم في مدينتهم ، فصالحوه ، وأعطوْه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من أبناء عظمائهم »أهـ. بنصه.

فليس فيه ذكر لمبالغ من المال أصلاً، لا سبعمائة ألف ولا سبعة آلاف.

وأما الرهائن ، فهم خمسون ، فكيف صارت ألفاً ؟؟

هكذا خطأ في العزو ، لا أدري له سراً ! ثم تحريف في الأرقام والأعداد !! أليس الفتح لنهب الأموال وقطع الطرق ؟ فإذا لم تذكر المصادر أنه أخذ مالاً ، فليتبرع هو بالمال للجنود (المترفين الذين هم في حاجة إلى المال) وأما الرهائن، فلست أدري الهدف من زيادة عددهم ، من خمسين إلى ألف !!!

(ج) ذكر أن قتيبة بنَ مسلم استولى على سمرقند في وقت لاحق ، وطرد أهلها ، واحتل جنودُه منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق ، وأضاف ذلك إلى الطبري وغيره من المصادر ، وسماها (الرواية العربية).

ونجد هذا في الطبري ، في الموضع الذي عزا إليه خبر فتح سعيد بن عثمان .. فلعل هذا سبق قلم !! ولكن يبقى أن نسأل :

من أين أتى بأن أهلَ سمرقند كانوا ملتزمين بالمعاهدة التي أبرموها مع سعيد بن عثمان ؟؟

وسأذكر هنا نص الطبري بحروفه ، وليس لي فيه إلا الاختصار فقط:

* جاء في جـ ٢ ص ١٢٤٢ « .. وخطب قتيبةُ الناس فقال : إن الله قد فتح لكم هذه البلدةَ في وقتٍ الغزو فيه ممكن ، وهذه السُّغْد شاغرة برجله (١)ا (السغد أهل سمرقند ، وينسب إليهم الإقليم الذي عاصمته سمرقند) قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، منعونا ما كنّا صالحنا عليه (طَرْخون) (اسم قائدهم حاكم سمرقند) ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى :(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسه ..) ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم ، والسُّغْد ، كالنضير وبني قريظة ، وقال الله تعالي:(وَأُخرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا).

---

(١) بلدة شاغرة برجلها ، أي لا تمتنع من غزو (أساس البلاغة)

ويلاحظ :

١- أن النص على نقض العهد من أهل سمرقند ، واضح صريح ، لا يحتمل أي تأويل .

٢- يفهم أنهم غدروا بقائدهم (طَرْخون) ، لأنه لم يوافقهم على نقض العهد .

٣- تشيع في الخطبة كلها روح الجهاد ، واللجوء إلى الله ،والالتزام بآداب الجهاد في الإسلام ، وليس فيها روح (الجري وراء الغنائم ، ولا قطع الطريق).

* وفي صفحة ١٢٤٩ من الجزء الثاني :

« .. .. فقال قتيبة (لقواده بعد المعركة):جزاكم الله عن الدين والأعراض خيراً .. وطلب أهل سمرقند الصلح ، وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم (طَرْخون) ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي ».

* وفي الصفحة نفسها جاء في وصف المعركة ، واستماتة أهل سمرقند في الدفاع عنها :

« أطال قتيبة المقام ، وثلمت الثلمة في سمرقند (أي في سور المدينة) ، فنادى منادٍ فصيحٌ بالعربية يشتم قتيبة .. .. فمكثنا طويلاً، وهو مُلح بالشتم .. وسُمع قتيبة يقول ، كالمناجي لنفسه : حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ؟ »

* وفي الصفحة ١٢٥٠ من الجزء نفسه :

«ودخلوا سمرقند ، فصالحوهم ، وصنع (غوزك) (ملك سمرقند) طعاماً ، ودعا قتيبة ، فأتاه في عدد من أصحابه ، فلما تغدى استوهب منه سمرقند ، فقال للملك : انتقل عنها ، فانتقل عنها ، وتلا قتيبة:(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقى).

ونستطيع عند النظر إلى هذه النصوص ، أن نرى ما يلي :-

١- وضوح الهدف الذي يقاتل من أجله المسلمون ، الدين والأعراض ، كما جاء في دعاء قتيبة لرجاله ، وثنائه عليهم.

٢- الوفاء بالعهد -لاالغدر به- فيرى أن في قتاله أهل سمرقند ثأراً لحاكمها السابق (طَرْخون) الذي قتلوه ، فهو يقول : «أنا ثائر بدم طَرخون . كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي ».

٣- إن سمرقند قد أكثرت الشقاق ، والعناد ، والغدر ، وهذا واضح من مناجاة قتيبة لنفسه قائلاً: «حتى متى يعشش فيك الشيطان ياسمرقند؟؟».

٤- سماحة قتيبة والمسلمين ، وحفاظهم على العهد ، فمع ضراوة المعارك واستنفار (غوزك) حاكم سمرقند للأقاليم المجاورة ، واشتداده على المسلمين ، كما هو واضح تمام الوضوح في الطبري ، مع هذا نجد المسلمين يقبلون دعوة (غوزك)على الغداء ، بعد أن أمنوه على نفسه ، وكلٌ من معه، لدرجة أنه طمع في أن يسلموا له المدينة ثانية ،لما رآه من حلمهم وحسن معاملتهم ، فلما استوهبها من قتيبة ، رفض وأمره بالانتقال عنها ، حتي لا تتكرر مأساة الغدر، والقتال ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

بم نسمي هذا ؟!

والآن هذه نصوص الطبري ، بوضوحها وصراحتها ، وهذا ما يمكن أن نراه منها ، فكيف تعامى عنها(فلوتن)؟ وكيف رأى منها أن قتيبة ، طرد أهلها منها ، واحتل جنوده منازلها ، رغم التزامهم بالمعاهدة المبرمة مع القائد السابق؟

بم نسمي هذا ؟؟ .. لا أدري ، ولكن فقط أضعه أنموذجاً لسوء عمل هؤلاء ، وعدوانهم على الحقيقة ، والعلم ، ليرى ذلك المخدوعون من أبنائنا ، وليرى ذلك الباحثون ، فيعلموا أن أقوال هؤلاء ودراساتهم في حاجة دائمة

إلى التمحيص والتدقيق ، قبل أن نعتمد عليها ، ونتخذها مراجع ومصادر لكتاباتنا.

وأما تاريخ أمتنا ، فما أقسى ما تعرض له من تشويه وجَلْ ، وصلب ، فمن له برجال ينذرون أنفسَهم لإعادة كتابته؟ لا يضنون بوقت ولا جهد ، ولا ينتظرون جزاءً ولا شكوراً إلا من الله سبحانه .

obeikandl.com

لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟

وهكذا يحرفون ويشوهون تاريخنا

رأينا تشويه تاريخنا في صور كثيرة ، من بَتْر للنصوص ، واختيار لبعض الوقائع والأحداث دون بعض ، ومن تفسير للأحداث والأعمال حسَب الغرض والهوى ، وعن طريق (الإسقاط) لما في نفوسهم من مشاعر ، وما في واقعهم من فساد وانحراف ، وغير ذلك من الوسائل كثير .

ولكن الذي لم نكن نتصوره أن يصل الأمر إلى قلب الحقائق رأساً على عقب صراحة ، وتحويلِ المحاسن إلى عيوب ، والمفاخِر إلى نقائضَ ، وما يعد ضوءاً في جبين الدهر إلى سبة وعار.

والأدهى من ذلك أن هذا يتم باسم البحث (الأكاديمي) ، والمنهج العلمي ، ومراكز الدراسات ، ونزاهة الفكر ، وحرية البحث ، وفي أروقة الجامعات ،

(*) نشر في: مجلة الأمة ، العدد الأربعون ، السنة الرابعة ، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ يناير ١٩٨٤م

ومحراب العلم .. .. إلى آخر هذه التهويمات والجعجعات التي يستهوون بها المخدوعين من أبنائنا ، والمبهورين المدحورين من دارسينا ، فترى الواحدَ منهم يشمخ بأنفه ، مباهياً أنه سمع من المستشرق (فلان) أو أنه درس في القسم الذي يرأسه (فلان) ، أو الجامعة التي فيها (فلان) بل يباهي أحياناً بمجرد أنه قرأ (لفلان).

وبكل الصدق أنا أعذر هؤلاء ، فالقوم يحسنون التأني لما يريدون ، ويجيدون الدخول إلى عقول أبناء أمتنا ، ويعرفون كيف يشكلونها ، وبأي طريقة يصوغونها، فمن تظاهر بالحيدة العلمية ، وتجرد للبحث ، وإخلاصٍ للحقائق وحدها ، إلى نحو هذه الشعارات البراقة ، ومن حسن استغلال للعلاقات الشخصية ، فيتظاهرون لأبنائنا بحبهم لهم ، وحدبهم عليهم ويتخذونهم أصدقاء وأبناء ، يفتحون لهم بيوتهم، ويقدمونهم لأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم ، فيُشعرونهم بالأمن والاطمئنان في مغتربهم ، ويكونون دائماً في قضاء حوائجهم وتيسير مطالبهم ، وما يزالون بهم حتى يمتلكوا قلوبَهم ، فيصوغوها كما يشاؤون .

وعادةً يرى أبناؤنا ما عليه القوم من تقدم ورفاهية ، ومن نظام وضبط للأمور، وحرصٍ على الوقت والجهد ، ومن إمكانات مذهلة في مجالات الحياة المختلفة ، فيخيلُ إليهم أنهم إن أخذوا مواقعهم ، واعتنقوا أفكارهم، وقالوا بمثل قولهم أصبحوا مثلَهم . ومعذورون أبناؤنا حينما يوازنون بين أحوال بلادنا وبلادهم ، فيبدؤون اللقاء وهم مبهورون ، وكثيراً جداً ما يتحول المبهور إلى مدحور.

ولا تعجب بعد ذلك إذا وجدت من يتابع هؤلاء ، ويشايُعهم ، فيرى في(الحركات السرية) مثلِ الباطنية والقرمطية حركاتٍ إصلاحية تحررية ، ناطقاً بلسان أساتذته ، مخالفاً كلَّ أئمة الفكر والتاريخ الإسلامي فيما قالوه

عن هذه الحركات .. ولله في خلقه شؤون ..

قلب الحقائق :

واليوم نعرض أنموذجاً لهذا التزييف للتاريخ يصل إلى حد قلب الحقائق، فعلى حين تفاخر أمتنا بهذه القضية ، التي لم تشهد الدنيا -منذ خلقها الله- مثيلاً لها ، حين يضرب العدل بجرانه، ويشملُ أمتنا كلها بظله ، أيام أن كانت تمتد من الأندلس وجنوبي فرنسا غرباً حتى حدود الصين شرقاً، ويصبح العدل فيها مُناخاً يتنفّسه كل من تُظله رايةُ الخلافة الإسلامية ، ونسيماً يستنشقه كل من ينتسب إلى دولة الخلافة الإسلامية ، ذمياً كان ، أو معاهداً ، أو مسلماً على سواء.

تفاخر أمتنا بهذه القضية التي رفعها أهلُ (سمرقند) على القائد المسلم(قتيبة بنِ مسلم الباهلي) ، لأنه -فيماقالوا- قاتلهم على غِرَّة ، ولم يعلن عليهم الحربَ ، فانتصر عليهم ، وفتح مدينتهم !!!

ألا تُصيخ الدنيا آذانها ، وتلقي إلينا سمعها : بلدةٌ مغلوبة ، تشكو غالبها ، ومدينةٌ مفتوحة تشكو فاتحَها ، ولمن تشكوه ؟ تشكوه لقيادته !! تشكوه للخليفة (القائد الأعلى) !!

لا يعنيني كيف تلقى الخليفةُ الشكوى ، وكيف تصرف بها ، ولكن يكفيني أن يرد بخاطر أهل المدينة (سمرقند) أن يقدِّموا شكوى ضدَّ القائد الفاتح الذي دخل بلادهم ، وانتصر عليهم .

مجرد أن يرد هذا الخاطر عند أهل (سمرقند) وهم هناك في أقصى المشرق ، وبينهم وبين الخليفة الذي سيشكون إليه هذه الآلاف من الأميال ، مجرد أن يرد هذا الخاطر ، وبين (سمرقند) و(دمشق) ما بينها ، له مدلوله، كيف أدرك أهلُ (سمرقند) أن الخليفة يمكن أن يستمع لشكواهم ؟؟ .

لا شك أن شيوع (العدل) كان بحيث يصل خبره ، ويُعرف ذكرُه علي بعد ما بين (دمشق) و (سمرقند) (تقع سمرقند الآن في الاتحاد السوفيتي، في إحدى الجمهوريات الإسلامية الأسيرة)(١)

ناهيك عن موضوع القضية !! شكوى مدينة مفتوحة لفاتحيها !!

ناهيك عن قبول الدعوى ، والنظر في القضية ، والحكم فيها !!

والقضية والحكم فيها واردة في (الطبري :٥٦٨/٦) وسأعرضها بصياغة العالم الداعية الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله :

وفد قومٌ من أهل سمرقند إلى الخليفة « فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها ، دخل مدينتهم ، وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق ، فكتب الخليفةُ إلى عامله هناك ، أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين من(سمرقند)أخرجوا.

فنصب لهم الوالي قاضياً ينظر في شكواهم :

فحكم القاضي (وهو مسلم) بإخراج المسلمين !! على أن ينذرَهم قائدُ الجيش الإسلامي بعد ذلك ، وينابذَهم وفقاً لمبادىء الحرب الإسلامية ، حتى يكون أهل (سمرقند) على استعداد لقتال المسلمين، فلا يؤخذوا بغتة.

فلما رأى ذلك أهل (سمرقند) رأوا ما لا مثيل له في التاريخ ، من عدالة تنفذها الدولة علي جيشها وقائدها!!

قالوا : هذه أمة لا تحارَب ، وإنما حكمها رحمة ونعمة ، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي ، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم »أهـ. (من روائع حضارتنا ص ١٠٢).

---

(١) تحررت هذه الجمهوريات الآن بعد أن انهارت الشيوعية ، وانهار معها الاتحاد السوفيتي ، فهل يقوم المسلمون بدورهم ، ويؤدون واجبهم نحوهم ؟! نرجو أن يكون ..

هذه صفحة من تاريخ أمتنا تضيء ظلامَ الدنيا كلها ، وتوقظ ضميرَ البشرية ، وتحيي النفس الإنسانية ، وما أظنها تحتاج إلى تفسير أو تأويل ، أو تقديم أو تأخير.

كيف نظر المستشرقون إلى هذه الصفحة ؟؟

سأترك الحديث للمستشرق الشهير(ج. فان فلوتن) وهو من المعنيين بالتاريخ الأموي والعباسي ، ويعتمد على كتابته كثير من المؤلفين (الدكاترة)، حيث تجد اسمه مبثوثاً في هوامش كتبهم ، ينقلون عنه ويرجعون إليه ، وهم معذورون ، فالرجل قدم أطروحته بعنوان :(نشأة الحزب العباسي في خراسان) وصاحب كتاب (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) الذي ترجمه المؤرخ المشهور الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور محمد زكي إبراهيم في سنة ١٩٣٤م، وأعاد ترجمته الدكتور إبراهيم بيضون باسم (أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية) سنة ١٩٨٠م.

أعني أن (فلوتن) ليس ضيفاً على مائدة التاريخ ، فهو مؤرخ بحاثة في الفترة ذاتها التي نتكلم عنها.

وها هو كلامه بنصه عن ترجمة إبراهيم بيضون:

« شكا أهل سمرقند ظُلامتَهم للخليفة ، وما نزل بهم من خراب وتدمير على يد قتيبة !!

فأمر بتعيين قاضٍ خاص للنظر في هذه المسألة ، وجاء قراره من (الخبث) ما يبدو واضحاً لأي قارىء متجرد ، حيث قضى بأن يتحارب الفريقان -العرب وأهل سمرقند- وراء أسوار المدينة، وأن يؤخذ هؤلاء بالقوة قبل عقد

معاهدة جديدة معهم.

فإذا ما انتصر العرب - وهو ما كان محتملاً-(حيث فقد أهل سمرقند خاصية الدفاع عن مدينتهم داخل أسوارها) عادوا مرة أخرى إلى فتحها عَنْوة ، وانطبقت عليها شروط الاحتلال العسكري ، إلا إذا امتثلوا لتلك الشروط التي فرضها العرب عليهم ، أي : إن قرار القاضي لم يغير شيئاً في وضع المدينة»أهـ بنصه ص ٦٨-٦٩.

لا تعليق :

والأمر بهذه الصورة ليس بحاجة إلى تعليق ، فحينما يصل التحريف وقلب الحقائق إلى هذا الحد لا يكون هناك مجال لتعليق !!!

إن الجيوش الإسلامية ، ما كان لها من هدف إلا فتح طريق الدعوة الى الإسلام، وكانوا يَطلعُون على القوم ، فيخيرونهم بين واحدة من ثلاث : الإسلام - الجزية - القتال.

فإذا حارب قائدٌ إسلامي مدينةً ، وفتحها ودخلها منتصراً ، ثم جاء أهلها يزعمون أنهم أخذوا على غرة ، وشكَوا الجيشَ وقائدَه إلى الخليفة ، واستمع الخليفة إلى الشكوى ، وأمر بأن يُنصب لهم قاضٍ ، ويقبلُ القاضي الدعوى ويسمعها ، ويَحْكم - ويا للروعة والجلال والعظمة- يحكم بإجلاء الجيش الإسلامي عن المدينة !! قاضي الأمة يحكم بإجلاء جيشها عن المدينة التي فتحها !! يحكم على الجيش بالخروج ، ويبدأ من نقطة الصفر.

أين الخبث ؟!

إذا كان هناك من يرى في هذه النصاعة ، والطهارة (خبثاً) فليدلنا على الطهر والاستقامة أين تكون ؟

ومن عجب أن يقول المستشرق العظيم ، ربيبُ الأكاديميات ، وسادنُ الفكر ، وحامل لواء (المنهج العلمي) ، يقول : إنه خبث يبدو واضحاً لأي

قارئ متجرد.

وأنا أقول : نعم ، يبدو الخبث واضحاً لأي قارىء متجرد ، لكنه ليس في حكم القاضي ، ولكنه في قلم المستشرق وقلبه .

وحينما نضع هذه الرؤيةَ لهذا المستشرق ، لهذه الصفحة الناصعة من تاريخنا وكيف رآها سوداء (خبيثة) واضحة الخبث (لأي قارىء متجرد) علي حد تعبيره ، حين نقوم بذلك نرجو من القارئين والباحثين أن ينظروا ويتأملوا ، ثم يتابعوا البحث ليعرفوا في أي حقد أسود يغمس هؤلاء أقلامهم التي يكتبون بها.

كلمة :

وإذا بقيت كلمةٌ نقولها، فهي : أنه لابد أن يكون كاتب التاريخ الإسلامي مسلماً - لا ليحابي أو يجامل- بل لتكون لديه القدرة على استيعاب الحدث التاريخي وتفسيره ، فإن إدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية ، أمرٌ لازم وضروري لفهم الحادثة التاريخية وتفسيرها، حتى يفتح المؤرخ روحَه ، وفكرَه ، وحسَّه للحادثة ، ويستجيبَ لوقوعها في مداركه ، ولا يرفضَ شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج ، وتمحيص ونقد.

وأول ما تتسم به البحوث (الاستشراقية)عن الموضوعات الإسلامية هو نقص الاستجابة ، لأن الطبيعة الغربية- بصفة عامة- ينقصها عنصر الروحية الغيبية لكي تدرك الحياة الإسلامية إدراكاً كاملاً.

وهذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته ، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة ، أو تصوير حالة ، ومن هنا فمناهج المستشرقين غير صالحة لدراسة الموضوعات الإسلامية ، خاصة التاريخ الإسلامي ، ارجع في هذه الجزئية إلى:سيد قطب رحمه الله(في التاريخ : فكرة ومنهاج).

ولعل في تعليق (فان فلوتن) على قضية (سمرقند) بعد أن قلبها بهذه الصورة ما يؤكد هذا النقص في الاستجابة للحادثة التاريخية ، مما يشهد بخلل المنهج وقصوره ، قال (فلوتن) معقباً : «وهذا يُظهر لنا جيداً الفكرةَ التي خالجت العربَ وزعماءهم عن المهمة الموكولة إليهم في الشرق ، فقد وضع كل منهم مصلحته الشخصية في المقام الأول ، بينما احتل الإسلام المرتبةَ الثانية من اهتماماته».

هكذا يعزو الفتوح إلى الرغبة في الغنائم ، وزيادةِ الموارد ، والسيطرة ، ثم يأتي الإسلام بعد ذلك .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً).